**وزارة التعليم العلي والبحث العلمي**

**جامعة زيان عاشور ــ الجلفة**

**كلية العلوم الاجتماعية والانسانية**

**قسم علم النفس والفلسفة**

**محاضرات مقياس مناهج فلسفية معاصرة**

**السنة الثالثة ــ فلسفة**

**اعداد:**

**الدكتور / بوصالحيح حمدان**

**السنة الجامعية: 2019/ 2020**

**محاضرات مقياس مناهج فلسفية معاصرة**

**السنة الثالثة فلسفة**

**المحور الآول**

**مدخل الى المناهج الفلسفية:**

المنهج في الفلسفة هو آلة فكرية، أو تصور عقلي خاص و متسق للوسيلة المنظمة والواجب إتباعها في البحث الفلسفي للوصول إلى نتائج معينة، وهو يختلف عن المنهج العلمي من حيث طبيعته ومبادئه وأسسه، فالمنهج الفلسفي ذات طبيعة استدلالية، يعتمد على فروض أو مقدمات أولية، يسلم الفيلسوف بصحتها، ويستنبط منها نتائجه بالتأمل العقلي، ومادام البحث الفلسفي هو تجربة ذاتية تعبر عن رؤية الفيلسوف الخاصة للوجود والكون والإنسان، فانه لا يمكن الحديث عن تصور محدد للمنهج في الفلسفة فلا يوجد منطق واحد في الفلسفة بشكل تقنية كلية تحكم جميع الفلسفات، ولا يوجد منهاج فلسفي واحد يستطيع أن يجعل أي إنسان قادر على معالجة موضوعات ومسائل وقضايا بكيفية فلسفية، او أن يحول تأملاته العادية أو إلى تأملات فلسفية، اذ يوجد من المناهج والطرائق التي يمكن للفيلسوف أن يستخدمها ما يريد ـ فالمهم ـــــ كما يقول بوبرــ أن تكون له مشكلة تستحق النظر أو البحث وان يحاول صادقا حلها، فهناك من الطرائق والمناهج بقدر ما هنالك من مشكلات تستحق البحث.

ولا يمكن من جهة أخرى تتبع التكون التاريخي للمنهجم الفلسفي، لأن تاريخ الفلسفة لا يعرف التقدم الخطي والتراكم كما هو الحال في العلوم التجريبية، فلا معنى لأسبقية وأهمية منهج فلسفي عن آخر مادام كل منهج مرتبط بالمذهب الفلسفي والتجربة الفلسفية التي ينتمي إليها، فلا يمكن المفاضلة بين منهج سقراط ومنهج أفلاطون، ولا يمكن المفاضلة بين منهج ديكارت ومنهج " فوكو" أو بين منهج "نيتشه" و منهج "هيجل" أو"ماركس"، ومن هنا يمكننا القول أن المناهج الفلسفية تتعدد بتعدد التجارب الفلسفية، فإذا كانت كل تجربة فلسفية، هي تجربة خاصة في فروضها و مفاهيمها و أدلتها البرهانية، فان لكل تجربة فلسفية منهجا خاصا يؤطرها، ومن هنا سوف نميز بين بعض المناهج التي طبعت الفكر الفلسفي المعاصر كنماذج فحسب، ومنها:

**المنهج التحليلي**

**مقدمة:**

اذا كان التحليل قد ارتبط تاريخيا بالفلسفة باعتباره من أهم خصائص التفكير الفلسفي، إذ لا يمارس هذا الأخير دون تحليل، ولا تكاد تخلو فلسفة ما من طرائق التحليل، إلا أن التحليل أصبح منهجا قائما بذاته مع الفلسفة التحليلية المعاصرة خاصة مع " برتراند راسل" و"فيتغنشتاين" و"مور" ، وفلاسفة الوضعية المنطقية، نسعى من خلال هذه المحاضرة الوقوف على طبيعة هذا المنهج، خصائصه وخطواته من خلال نماذج من رواد هذا المنهج.

**في تحديد مفهوم المنهج التحليلي**:

التحـليل بشكـل عام هو تحويل الكل المـركب الذي يشكل موضوع التحليل إلى أجزائه البسيطة أو النهائية حتى يغدو هذا الأخير أكثر وضـوحا وبساطة ومعقولية. وتختلف أنواع التحليل تبعا للموضوع المحلل والطريقة التي يتم بها التحليل والأغراض التي توجهه. وتتباين دلالته من مجال معرفي إلى آخر، ومن سياق لآخر. إنه " تفكيك كل معين إلى أجزائه، سواء كان هذا التحليل ماديا كالتحليل الكيميائي أو ذهنيا كتعريف وتحليل تصور معين".[[1]](#footnote-2)

ويأخذ التحليل " معان عـديدة، يرتبط بعضها بالتفكيك أي تحـويل الكل إلى أجزائه البسيطـة، ويرتبط بعضها بفكرة الحل[[2]](#footnote-3) أي البرهنة على صحة قضية، وذلك استنادا إلى سلسلة من القضايا أو المقترحات تفضي في مجموعها إلى النتيجة المطلوبة، حيث يكون الانتقال إلى قضية جديدة لزوميا لتصبح النتيجة محصلة ضـرورية لما سبقها.

ويظهر التباين في مفهوم التحليل ضمن سياقات متعددة كعلم النفس وعلم الاجتماع والأدب بل وفي العلوم المادية والصورية أيضا. ففي مجال الفلسفة، هناك أكثر من دلالة تاريخية لمفهوم " التحليل " "فإما أن يكون تحليلا للمفاهيم والتصورات كما كان عند " سقراط" و"أفلاطون" في محاوراته ، و"أرسطو" في أخلاقه أو للمعرفة الإنسانية وردّها إلى عناصرها، أو لتحليل الوجود لبيان مكوناته كما عند" ديكارت" و"لوك" و"هيوم" ، أو تحليل الإطارات التي تصعب فيها المعرفة، وهي اللغة كما عند "مور" و"فيتغنشتاين و راسل و"كارناب".

وفي مقابل التحلـيل، هناك ما يعرف بالتركيب، أي التأليف بين الأجــزاء لتشكل كـلا مركبا له معـنى، والفكر الفلسفي هو تركيـبي، بمعنى أنه يتجه إلى البحث عن حقيقـة الأشـياء بردها إلى حقيقة مشتركة واحـدة أو أصل أو مبدأ يفسر وجودها ونظامها، أي أن فهم نظام الأجزاء يتم من خلال نظام الكل.

ومن الملاحظ أنه من غير الممكن فصل التحليل عن التركيب بشكل تام، خاصة إذا أخذنا التحليل بالمعنى الذي ذكر أولا، فقد ذهب "كوندياك" Bonnot de Condillac, Étienne (1714–1780) إلى أن عملية التفكيك أي التحليل تشمل التركيب، لأن غرض التحليل هو الكشف عن النظام الثابت بين الأجزاء، فهو لا يخـرج عن إطار الروابط القائمة بينها، بهذا المعنى يمكن القول عن جمهورية أفلاطون أنها تعد تحليـلا لفكرة المجتمع العادل لكنها في نفس الوقت تمثـل تركيبا فكريا لمجتمع عـادل، وفي نفس السـياق يمكـن أن نفهم لماذا جمع روني ديكارت (1595-1650) في قـواعده الأربعة بين التحليل والتركيب(القاعدة الثـانية والثالثة).[[3]](#footnote-4) **المنهج التحليلي في الفكر الفلسفي:**

لقد ارتبط التحليل تاريخيا بالفلسفة بوصفه من أهم خصائص التفكير الفلسفي، إذ لا يمارس هذا الأخير دون تحليل، فقد مارسه "سقراط" من خلال طريقة التهكم والتوليد، وتقدم لنا محاورات "أفلاطون بوصفه المؤسس لهذا المنهج، خاصة القسمة الثنائية الأفلاطونية التي نجدها في محاورة السفسطائي وبارمنيدس والسياسي، وينشأ عن هذه القسمة منهج التحليل ثم التركيب، إنها تجعل الفكر أكثر توجيها وتسمح بتحقيق الدقة والوضوح وتصلح أساسا للبرهنة على المطلوب بحذف العناصر الزائدة والغريبة، هذا الاختزال الذي يعرف في الفلسفة حديثا بنصل أوكام.[[4]](#footnote-5)

و يوظف "أرسطو" التحليل في أكثر من سياق، خاصة في نظريته المنطقية، ففي التحليلات الأولى يهتم بتحليل القياس إلى ما ينطوي عليه من قضايا وفي التحليلات الثانية يهتم بتحليل البرهان إلى عناصره البسيطة. وتكمن قيمة التحليل من خلال رده لما يمكن معرفته من ظواهر أو حقائق إلى ما هو أبسط أي إلى المبدأ أو المنطلق المؤسس للمعرفة، يظهر ذلك من خلال ما ينتهي إليه التحليل عند "ديكارت" مثلا وهو مجموعة الطبائع البسيطة التي يدركها العقل مباشرة وبوضوح تام كالبديهيات الرياضية، أو عند "دافيد هيوم" و"جون لوك" وهو مجموعة الانطباعات الحسية. وينتهي التحليل عند "سبينوزا" إلى مجموعة من العناصر البسيطة التي يبنى الكون انطلاقا منها.[[5]](#footnote-6)

ويتجلى التحليل عند "ليبنز"في القول بالذرات الروحية أو الموندات اللامادية التي لا تقبل القسمة ولا الفناء ولا شكل لها. وهي بالتالي أبعد من أن تكون موضوعا للعلم الطبيعي.[[6]](#footnote-7) لكن أهم ما يميز أعمال ليبنتز بعد ذلك هو ربطه التحليل بالمنطق مما يعني تاريخيا تأسيسه لمنهج التحليل المنطقي، إذ نجد أن ليبنتز هو أول من حاول صياغة المعرفة صياغة منطقية رمزية لجعلها أكثر دقة ووضوحا، ودعا إلى استخدام لغة موحدة وشاملة.

لقد اتخذ هذا المنهج في مجـال المعرفة، لتوضـيح وتحديد معاني الكلمات والعبارات، ويتحقق ذلك من خلال إعادة صـياغة وتحويل هذه العبارات إلى أخرى أكثر بساطة ووضوحا ودقة وأنسب لتأدية المعنى المقصود، إن سوء الفهم المتعلق باستخدام الكلمات إنما ينتج خاصة عن " تماثلات معينة بين صور التعبير في المجالات المختلفة للغة ويمكن إزالة بعضها باستبدال إحدى صور التعبير بأخرى وهذا يمكن أن يسمى تحليلا لصور تعبيرنا"[[7]](#footnote-8)، والحقيقـة أنه يمكننا أن نكشـف عن الطابع التحليلي في جمـيع الفلسفات، بالرغـم من اختـلافها في توظيف التحليل كمنهج.

**منهج التحليل في الفلسفة التحليلية المعاصرة:**

لقد اتخذ المنهج التحليلي طابعا خاصا في الفلسفة التحليلية المعاصرة خاصة عند "راسل" و"مور" و"فيتغنشتاين" و فلاسفة الوضعية المنطقية، فلم تعد وظيفة الفلسفة من وجهة نظر فلاسفة التحليل بناء وجهة نظر شاملة أو وضع تفسير عام للحياة والوجود، بل مهمة الفلسفة هي التحليل المنطقي للغة العلم، فلن تكون الفلسفة علما إلا إذا التزمت حدود التحليل، وهو أمر سيسمح لها بأن تسير في نفس الطريق العلمي المضمون الذي سارت فيه باقي العلوم الأخرى والمتسم بالدقة والوضوح والتحديد، والاهتمام بالقضايا العلمية بدلا من الاهتمام بأشباه المشاكل فموضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار، فهي ليست نظرية بل فاعلية، ولا تكون نتيجتها عددا من القضايا الفلسفية وإنما توضيحا للقضايا، فليست الفلسفة علما من العلوم، يراد به إدراك حقائق الأشياء، أو تناولها تناولا علميا فهذا من اختصاص العلم لأنه النمط الأوحد من المعرفة الممكنة، بل مهمة الفلسفة هي التحليل اللغوي لقضايا العلم. ([[8]](#footnote-9))

وبهذا تصبح الفلسفة "منطقا للعلم "هدفها هو التوضيح لا الإضافة الجديدة، فليس هناك من عالم إلا عالم الواقع، وليس لأحد أن يتحدث عن العالم حديثا موضوعيا إلا رجال العلوم المختلفة.([[9]](#footnote-10))

ويرى "**آير**" (Ayer) أن الفلسفة ليس من شأنها البتة أن تنتج معارف تأملية لتدخل في منافسة الفروض التي يضعها ويبحثها العلم، ولا من مهمتها أن تصوغ خطابا حول مشروعية النظريات العلمية ، بل إن وظيفتها تنحصر في توضيح قضايا العلم مع إظهار ارتباطاتها المنطقية وجعلها واضحة فحسب. ([[10]](#footnote-11))

وقد اعتمد فلاسفة التحليل المعاصر على المنطق الرمزي أو الرياضي باعتبار أن مفاهيمه وقواعده التي تتميز بالدقة والصرامة كفيلة بتخليص اللغة مما فيها من غموض، وبالتالي يمكنها تحرير العقل مما يقيده من الأوهام والأفكار الزائفة، ومن هنا جاء إسناد صفة "منطقي" للمنهج المتبع خاصة مع "فريجه" و"راسل" و"جورج مور" و"فيتغنشتاين" حيث أصبحت الفلسفة هي التحليل المنطقي لقضايا اللغة.

فالفلسفة ليست نظرية من النظريات بل هي فـاعلية، ولذا يتكون العمل الفلسفي أساسا من توضيحات، ولا تكون نتيجة الفلسفة عددا من القضايا الفلسفية إنما توضيح للقضايا، فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة، وإلا ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمة "[[11]](#footnote-12) والغرض ليس هو الكشف عن المضمون المعرفي لهذه الأفكار بل تحديد بنائها أو هيكلها المنطقي، مما يسمح بتحديد الروابط بين محتوياتها، فيتضح ما إذا كانت معقولة أو منطقية أم غير ذلك، إن كثيرا من عبارات اللغة توهمنا بأنها تحمل معان، في حين أنها ليست كذلك، ومثال ذلك أن تنطوي عبارة ما على كلمة لا تشير إلى شيء في خبرة الإنسان، مثل كلمة "جوهر" أو أن تنطوي على ألفاظ لها دلالاتها الواقعية وتركب وفقا لقواعـد نحوية لكنها لا تخضع للقواعد المنطقية مثل" العقل عنصر" إن القضايا الزائفة أو أشباه القضايا تخالف نحو المنطق مثلا:"إن اللاشيء نفسه لا يتشيأ"[[12]](#footnote-13) والأسئلة التي تطرحها الفلسفة هي من قبيل(هل العدد مقدس؟) مثل هذه الجمل لا تحمل أي معنى لأن فيها خرق لقواعد المنطق.

وكشف توظيـف التحليل أن كثيرا ممـا اعتبره الفـلاسفة على أنه إشكالات تتطلـب البحث عن إجابة، ليس في حقيقته إلا سوء استخدام لعبارات اللغة. ولذا فعبارات الفلسفة التقليدية السابقة للفلسفة للتحليلية عبارات زائفـة ومضللة، "ولا عجب إذا عرفنا أن أعمق المشكلات ليست في حقيقتها مشكلات على الإطلاق".[[13]](#footnote-14)

**المنهج التحليلي عند زكي نجيب محمود:**

يقوم المنهج التحليلي في الفلسفة على تشريح تلك المفاهيم الغامضة، و ذلك ليكشف عن عناصرها و مكوناتها، فالمهمة الأساسية للفلسفة إنما تتمثل أساسا في عملية التحليل اللغوي هذه، و لكي يكون حديثا عن منهج التحليل اللغوي أكثر وضوحا، نعرض بعض النماذج التي ذكرها "زكي نجيب محمود" باعتباره أحد ممثلي الوضعية المنطقية في الفكر العربي المعاصر.

من المفاهيم التي يضعها "زكي نجيب محمود" تحت مجهر التحليل المنطقي : مفهوم "الروحانية"، حيث وجد الكثير من الناس في عالمنا العربي المعاصر يتشدقون بأنهم روحانيون بعكس رجال الغرب الماديين، و بذلك يبررون العجز الذي أصاب المجتمعات العربية، و يقللون من التقدم المذهل للغرب.

فكتب "زكي نجيب" محمود مقالا بعنوان "روحانيون نحن؟ و بأي معنى؟" لينتقد تلك الروحانية المزعومة و يبين حقيقة المادية الملعونة.

و لكي يحدد مفهوم "الروحانية"، فانه يبدأ بمقدمة شهيرة، انطلق منها ناقدا لكثير من المفاهيم و الألفاظ، و هي أن المعاني كلها ليست من نوع واحد، فهي تختلف باختلاف الألفاظ. و منها أن يكون معنى اللفظ شيئا مجسدا محسوسا يمكن الإشارة إليه، و منها معان تكون على هيئة تصورات عقلية في الذهن ليست مجسدة أو محسوسة، و أخيرا منها مالا تشير إلى عالم الواقع فهي محض خيال. و قد كان يرى أن لفظ "الروحانية" من النوع الثاني، فهي "تصور ذهني لنمط معين من السلوك و من وجهة النظر إلى الكون و الإنسان، على أن ذلك التصور الذهني قد يجد في عالم الواقع ما يجسده أو لا يجده"([[14]](#footnote-15)).

ثم ينتقل بعد ذلك إلى إثبات أن الذي يزعم أنه روحاني فإنما يقصد أنه لا يهتم بحياة البدن إلا من حيث هو أداة، و إنما غايته تقع على العبادات. و هنا يذهب دكتور زكي نجيب محمود إلى أن تلك العبادات إذا لم تترجم إلى قيم و سلوك فهي مجرد عبث، بل لابد لمن يهتم بالجانب الروحي كما يدعى أن يطبق البرنامج الأمثل لهذا الجانب و هو القران الذي يحث على العلم و العمل.

و طبقا لهذا المنطق، فان تلك المادية الملعونة تتساقط كما تتساقط تلك الروحانية المزعومة، و ذلك حينما قال:" أهو مادي من يفني حياته منقبا في الأرض و غائصا في البحر و طائرا في الهواء و ما يجاوز الهواء ليزداد علما بخلق الله؟ و هل الروحانية هي أن نتربع على الأرض جلوسا في انتظار الخواجه ليخرج لنا من أرضنا .......و حديدها و نحاسها ؟ هل الروحانية هي أن نجمد كالمقعد انتظارا لما ........... لنا ذلك المادي المعلون فننعم نحن بما صنع؟ ".([[15]](#footnote-16))

و لذلك، فقد وجه النقد إلى هؤلاء الدعاة الذين يحاربون حضارة العصر المادية، و يطالبهم بألا يستخدموا في صياحهم تلك الأجهزة و الآلات التي هي مادية، و صنعها الماديون الأشرار.

فإذا كان هذا مجرد مثال لما يقوم به أصحاب الوضعية المنطقية من تحليل للألفاظ المستخدمة،باعتبار أن ذلك التحليل اللغوي للألفاظ هو الوظيفة الأساسية للفلسفة في هذا العصر، فانه يجدر بنا أن نشير إلى أن أصحاب الوضعية المنطقية قد أشاروا إلى أن هناك عدة أدوات للتحليل الفلسفي، و هي تلك التي يمكن إيجازها فيما يلي:

البحث عما إذا كانت الفكرة المعينة تحمل في طياتها ما يشير إلى معنى أو لا تحمل، و ذلك لأن اللغة بها الكثير من الكلمات التي لا تحمل معنى.

ثم يحدد الباحث بعد ذلك قيمة الفكرة، و ذلك في ضوء الاعتبارات الآتية:

أن يجد ما يشار إليه تعبيرا عن هذه الفكرة سواء أكان ذلك شيئا أو صورة من صور السلوك مشار إليه من أي نوع آخر، و عندئذ تكون الفكرة ذات معنى، و أنها بذلك فكرة صحيحة بوجود معناها ذاك في دنيا الحقائق.

أن يتأكد ناقد الفكرة من طبيعة ما تشير إليه هذه الفكرة، و لكنه ينظر إلى ما هو واقع بالفعل فيجده على غير تلك الصورة، و عندئذ تكون الفكرة ذات معنى إلا أنها خاطئة في تصويرها للواقع.

أن يجد ناقد الفكرة أنها تنطوي على تناقض ، لأن العناصر الكامنة فيها يعارض بعضها بعضا، و عندئذ لا ندري أي عنصر من تلك العناصر نريد.

أن يحلل الناقد فكرة معينة فيجدها،بحكم تكوينها اللفظي نفسه،لا تحمل معنى على الإطلاق، أي أنه يجد استحالة منطقية في أن تشير إلى أي موجود بين الموجودات العقلية، أو بين الموجودات التي يمكن أن يتحقق لها وجود في عالم الواقع.

**خلاصة:**

لاشك أنه لا يمكن انكار ما تحقق بفضل اعتـماد منهج التحليل المنطقي من فلاسفة التحليل المعاصر من إنجازات قيمة في مجال المنطق وخاصة فيما يتعلق بالدلالة المنطقية وكذا بالنسـبة لمنطق ومنـاهج العلـوم. ويبدو أن ما يبرر الحاجة المــاسة إلى هذا المنهج في مرحلة كتلك التي ازداد فيها الاهتمام به، إنما يعود لواقع المعرفة العلمية، وما عرفته من أزمات طرحت خلافا حادا وجدلا واسعا حول مشكلة الأسس ،وقد عبر "هنري بوانكاري" عن ذلك بقوله :"إن الناس لا يتفاهمون لأنهم لا يتحدثون نفس اللغة، ولأن هناك لغات لا يمكن تعلمها [[16]](#footnote-17). فهذا الوضع شكل أرضية مناسبة لمحاولة تأسيس نهج جديد يمكنه أن يعيد للمعرفة نظامها ونسقيتها ووحدتها. وكان بالإمكان القبول بدور فلسفي متميز أو خاص في هذا الإطار، لكن الأمر انتهي بتحويل الفلسفة إلى هذا المنهج أو باحتواء المنهج الجديد لها.

ان التحول الحاصل في منهج التحليل المنطقي، فقد صار غاية أكثر منه وسيلة. ولم يعد من المهم ما يمكن الحصول عليه من النتائج، بقدر ما يهم الطريقة المتبعة. إن الاهتمام المتزايد بتـوظيف الـرموز والقواعد المنطقية قد حـول الفلسفة لا إلى فاعلية فاعـلة وديناميكية، بل إلى فلسفة مغلقة وميكانيكية، محكومة بمنطلقات لا يمكن تعديها. وبقدر ما كانت اللغة أكثر وضوحا وموضوعية بقدر ما كانت أسيرة قوالب المعاني الثابتة والجامدة، وبالتالي بعيدة عن الواقع المتحـرك وعن شعور الفاعل الذاتي نفسه.

**المحور الثاني**

**المنهج الجينيالوجي**

**تمهيد:**

لقد شكل المنهج الجينيالوجي الذي أرسى قواعده "فرديرك نيتشه" منعطفا جديدا في الخطاب الفلسفي المعاصر

نتيجة لما أحدثه من قطيعة فكرية مع المناهج الفلسفية السائدة من جهة وما فتحه من أفاق جديدة في التفكير الفلسفي المعاصر من جهة أخرى، فما هي مدلولات هذا المنهج ؟

**في تحديد مفهوم الجينيالوجيا:**

للجينيالوجيا معاني ودلالات مختلفة فهو مفهوم قديم أعيد تداوله في الفكر الفلسفي المعاصر خاصة مع الفيلسوف الألماني "فريديرك نيتشه"، والجينيالوجيا مصطلح مشتق من الكلمة اللاتينية Généalogie وتنحدر من الكلمة الإغريقية GENEALOGOS وتعني كلمة généa في اللغة الإغريقية الأصل ORIGINE بينما تعني كلمةLOGOS علم، أما فعل GENEOLOGEIN فيدل على ذ كر الأ صول وتعدادها[[17]](#footnote-18).

وقد تم تداول الكلمة المركبة في اللغات الأوروبية التي كانت تدل على سلسلة الأسلاف الذين تربطهم قرابة نسبية قد تنحدر من الأصل المشترك الواحد مشكلة شجرة النسب لأسرة أول شخص ما، كما كانت تدل أيضا على العلم المتخصص في البحث عن الأصول ونسب العائلات. وتطور المفهوم ليدل في الثقافة الغربية الحديثة على فرع من فروع علم التاريخ له مناهج خاصة به، مهمته إقامة شجرة الانتماء والنسب.

ويعود الفضل في تداول مفهوم الجينيالوجيا في الحقل الفلسفي المعاصر، إلى "نيتشه" من خلال كتاباته المختلفة ويعني به نوع من التفكير الفلسفي النقدي يثير تساؤلات عن أصل نشأة القيم الأخلاقية، ومن هنا أصبح معنى الجينيالوجيا يعني في الخطاب الفلسفي عموما تتبع أصول موضوع ما أو فكرة، وتقديم عرض تاريخي متسلسل لظهوره ونشأته وتطوره، ليس الغاية منه تبريره وإضفاء طابع المعقولية والمشروعية كما كان سائدا، وإنما انتقاده وإبراز طبيعته النسبية، وأصبحت الجينيالوجيا تعني التنقيب والتقصي التاريخي وهي ظيفة نقدية، غايتها تبيان أن الإنسان متناه ودعائمه الأخلاقية والثقافية تاريخية ونسبي

خصائص المنهج الجينيالوجي:

يبين نيتشه في كتابيه "إنساني مفرط في إنسانيته" و"جينيالوجيا الأخلاق"، أهم خصائص المنهج الجينيالوجي عندما أكد على ضرورة تحرر العقل المستعبد بالواجبات والقيم القديمة المبجلة ، ليصير العقل حرا ويزداد تحررا إذا وضع في ذهنه أن الفضائل مجرد أدوات يتحكم فيها الإنسان، [[18]](#footnote-19) كما يجب عليه أن يتحرر من الأحكام المسبقة الدينية أو الأخلاقية أي التحرر من وهم الحكم الأخلاقي والديني المسبق والتموضع وراء الخير والشر؛ و التحرر من روح العصر وثقافته وذلك باعتماد الشك والنقد، وفي هذا الصدد يقول نيتشه: "إنني اعتقد أنا أيضا انه لا احد قد نظر إلى العالم بشك في عمق شكي"[[19]](#footnote-20)، لقد اعتقد اغلب الفلاسفة أن الأخلاق أمر معطى بديهي لا يقبل الشك "كانت قيمة القيم أمرا معطى واقعيا بمنأى عن كل شك وتساؤل، فقد أضفي على الطيب قيمة أرفع من القيمة التي أضفيت على الخبيث دون أن يتخلل ذلك الإخفاء خردلة من الشك"[[20]](#footnote-21) .

يرى نيتشه أن لكشف القيم وإبراز قيمتها وإعادة تقييمها لابد من البحث عن الأسباب الخفية المتحكمة فيها، والمقارنة لطرح قضايا جديدة بنظرة نقدية حيث يصرح نيتشه مؤكدا على ضرورة "التجوال في صقيع الأخلاق تجوالا يطرح كمية من المشكلات الجديدة التي ينظر إليها بأبصار جديدة"، فالتجوال يساهم في اكتشاف أنماط جديدة وقضايا جديدة مختلفة تمتاز بالنظرة الثاقبة واللا تحيز، والوعي التاريخي لتطور القيم، كما يجب أن تتميز الأفكار بالنضج والوضوح والصلابة والإتقان، وأيضا الامتزاج والتداخل وتكون اللغة واضحة والمفاهيم دقيقة، "تلك هي وسيلة التفكير الوحيدة التي يخلق بالفيلسوف أن يتبعها"[[21]](#footnote-22)، فضلا عن ذلك يجب اليقظة والتنبه إلى افتراضات مبنية على الفراغ، بالاعتماد على الوثائق "اللون الرمادي" أي ضرورة المعرفة التاريخية للنصوص[[22]](#footnote-23) وذلك عن طريق فقه اللغة أي الفيلولوجيا لدراسة النصوص القديمة كما هي في أصلها الأول وبدايتها الأولى ل كشف أسباب نشأتها وظروف تشوه معناها الأصلي وتحديد الإرادة المتحكمة فيها والمتخفية من ورائها أي نزع القناع.

ان غاية الجينيالوجيا هي تجاوز تبجيل الأصل،"فهم الأصل يحد من شأن الأصل"، فالقيمة المعطاة للأصل مجرد قناع يحتاج إلى تأويل، "ومعنى البحث في الأصل هو العودة إلى الوراء لإلقاء النظرة التاريخية على ماهية الشيء للحصول عليه وهو في نقائه الأول"، فليست بداية الأشياء وأصولها كاملة، والبحث عن الأصل معناه في الأخير الشروع في إماطة اللثام عن هوية أولى، وبعد العودة إلى الأصول الأولى نقوم بالتحليل والتفكيك يتبين لنا القوة المتحكمة في هذا الأصل.

ومن هنا فالجينيالوجيا تحليل للأفكار لاكتشاف القوى الفاعلة وتفسير النشاطات الفعلية، حيث يجب البحث عن القوى المستولية على الأفكار وأيضا الإرادة التي تعبر عن نفسها فيها وتختفي فيها في نفس الوقت، فتصبح بحث عن استراتيجيات الهيمنة، "فالتاريخ ليس تقدما لعقل كوني وإنما لعبة الانتقال من سيطرة إلى أخرى"[[23]](#footnote-24) ، فمن خلال تحليل الأفكار تظهر لنا حقيقة الأشياء التي كانت تختفي وراء الأقنعة.

وعليه فان الجينيالوجا تسعى الى كشف وتعرية ونزع الأقنعة لتحديد قيمة القيم والقوى المتحكمة فيها ومن ثم إبراز نوعية النموذج المنتصر ونتائجه الواقعية حضاريا وثقافيا وفكريا.

**آليات المنهج الجينيالوجي عند نيتشه:**

يقوم المنهج الجينيالوجي عند نيتشه على جملة من الاليات يمكن حصرها في مايلي :

ــ العودة إلى الوراء: وتعني تتبع مراحل نشأة المفاهيم والقيم و تطور دلالتها لا من حيث تسلسلها المنطقي والعقلاني كما حدث بل على اعتبار أن القيم الأخلاقية والأفكار ليست لها أصولا ثابتة متعالية خارجية، وإنما هناك شروطا واقعية وجودية مرتبطة بمطالب الحياة والمصالح الشخصية الكامنة وراء إنتاج المفاهيم وتطويرها عبر العصور، فالغاية من الوقوف عند البدايات والأصول ليس لكونها حقيقة الحقائق وإنما كنوع من الخطأ، وبهذا تصبح الجينيالوجيا العودة إلى بداية التاريخ أو الأصل والميلاد لكشف أسباب نشأته [[24]](#footnote-25) اذ يجب تصحيح النصوص والتحدث إليها وتفسيرها تفسيرا فيلولوجيا أي فهم ما يقوله الكاتب، فكل نص له معناه الأصلي لابد من فهمه عن طريق التأويل والتفسير الفيلولوجي، إذ "لم تكتسب كل العلوم استمرارية وثباتا، إلا حين بلغ فن القراءة الجيدة أي فقه اللغة ذروته"[[25]](#footnote-26) فلكل مفهوم جذره اللغوي يتوجب تقصيه لتبيان القوة المتحكمة فيه والمعنى السائد ومدى تطوره وتغيره عبر التاريخ؛ وعليه فإن العودة إلى البدايات ليس لاستعادة جذور الهوية والتراث، وإنما للتحطيم والهدم من أجل إنتاج اختلافها.

ــ النقد والجدل:

إن فلسفة نيتشه هي إعادة تقويم القيم وقلبها، بالسعي إلى تجاوز الميتافيزيقا في مواجهة العدمية الأوروبية وحتى يتم هذا لابد من أن تكون فلسفة المعنى والقيم نقدية، ولتحقيق ذلك لابد أولا من إقامة جينيالوجيا للعدمية، وذلك بإرجاع الفكرة إلى جذرها كوجهة إلى الوراء والماضي، ومساءلة الأصنام التي كانت عبارة عن يقينيات، فتصبح مطرقة الفلسفة تحطيم الزائف والأجوف، "إذن الجينيالوجيا هي بمنظار فيلولوجي بحث المشاكل بحثا مفككا للغة عبر التاريخ [[26]](#footnote-27).

يجب قلب كل القيم دون مراعاة أصولها الأولى المتخفية وإعادة الاعتبار للإنسان خالق القيم، وذلك من خلال نقد القيم وإعادة طرح قيمة القيم؛ لمعرفة الأسباب التي أحدثتها وشوهتها، لهذا يضع نيتشه الحس التاريخي "وهو العلم الذي لا يستند إلى مطلق ويفلت من قبضة الدين والميتافيزيقا ليكون الأداة المفضلة للجينيالوجيا، انه العلم الذي يمحو كل المقدسات التقليدية بغية تحرير الإنسان وعدم الحفاظ على الأصل الذي يتعرف فيه الإنسان على نفسه"، ومنه فان الجينيالوجيا هي إعادة تقييم القيم وقلبها اعتمادا على التفسير والنقد والتأويل.

التأويل:

لا يمكن معرفة أي معنى لأي ظاهرة أو أي شيء إلا إذا تعرفنا على القوة التي تتملك الشيء أو تسيطر عليه أو تختفي فيه لتعبر عن نفسها فيه، والتاريخ هو "تعاقب القوى التي تستولي عليه، وتعايش القوى التي تصارع من أجل الاستيلاء عليه، كما أن الموضوع ذاته، والظاهرة ذاتها، يتبدل معناهما وفقا للقوة التي تستحوذ عليهما"، على هذا الأساس يصبح البحث عن أصول القيم كشف عن الأقنعة دون بلوغ الحقيقة؛ لأن تاريخ الأفكار لعبة لا نهائية من التأويلات تختفي وراءها دائما إرادة القوة التي تفرضها، فالقيمة ذاتية نابعة من إرادة القوة ، لابد من تأويل كل الخطابات، فالتأويل إبداع يفتح الآفاق لكشف الأسباب الخفية والقوى المتحكمة في خلق القيم، يجب على الذات أن تخلق القيم بإرادتها من خلال عملية التأويل؛ فالمعنى ليس مطلقا وإنما يتعدد نظرا لتعاقب المعاني بفعل صراع التاريخ وصيرورته.

وبناء على ماسبق فان المنهج الجينيالوجي منهج يهتم بتقييم القيم والحقائق التاريخية، و يتم هذا بالاعتماد على مراحل، أولها الحس التاريخي حينها ندرك أن الأصل والمعنى في صيرورة، وليس كما كان يعتقد أنصار الميتافيزيقا بادعائهم أن الحقيقة التاريخية مطلقة، وثانيا النقد والتأويل لاكتشاف الأقنعة التي تتخفى وراء القواعد والأحكام، لذا يجب على الإنسان أن يتحرر من هذه اللعبة، بفهمها والسيطرة عليها من خلال صنع قيم هو خالقها وفق ما تمليه عليه إرادته القوية، وان ينقد كل ما يأتيه من الخارج وإعادة قلبه وتقييمه وفهم أسبابه.

**بين الجينيالوجيا والاركيولوجيا:**

تتداخل الجينيالوجيا مع الاركيولوجيا في كثير من الجوانب نجملها في ما يلي:

يكمن التقاطع بين الجينيالوجيا و الاركيولوجيا في نبذ مسلمة الأصل كموطن للحقيقة، فلا يجب إهدار الجهد في البحث عن أصل لا نضمن نتائج صدقه قد يضيع ذلك الأصل ليحمل معه حقائق مزيفة تتبدى لنا بأنها صحيحة لآن وراء كل حقيقة مهما تكن راهنة كثرة كاثرة من الأخطاء فلا يصدقن أحدا أن الحقيقة تبقى حقيقة ونحن نرفع عنها الحجاب([[27]](#footnote-28) ) لآن أي حقيقة في الأصل هي نوع من الخطأ لذا يجب تجاوز فكرة البحث في الأصول كونها راعي الحقيقة والحامل لها بل يجب التوجه صوب البدايات بإتباع الأثر الجينيالوجي لمختلف الحقول المعرفية .

ــ شكلت الجينيالوجيا المدخل الرئيسي لسلسلة الأبحاث الاركيولوجية بالنسبة لــ "فوكو" لوصف مختلف الخطابات والممارسات الخطابية فلكي تكتمل المهمة الفوكوية كان لازما تنقيح أبحاثه بلمسات جينيالوجية حيث يقول "فوكو" كان لازما أن ينشأ بين الوصف النقدي والوصف الجينيالوجي نوعا من التناوب والتآزر والتكامل([[28]](#footnote-29))

ـــ كلا من المنهجين يقومان على الوصف كطريقة في الدراسة والتحليل بيد أن كلا منها مجاله الخاص وظيفة الاركيولوجيا كما حددها فوكو تتمحور في تحليل الخطابات عن طريق استبدال الوضوح الذي طبعت به بوضوح أخر أو انتقاد الحقيقة وزعزعة يقينها الذي تميزت به في حين إن الجينيالوجيا تعمل على كشف الغطاء عن الدور الذي لعبه التاريخ في بلورة تلك الموضوعات التي وصفت اركيولوجيا فالاركيولوجيا هي ذلك المنهج الخاص بتحليل الخطابات والجينيالوجيا هي التكتيك الذي يقوم انطلاقا من الخطابات المحلية كما هي محللة أو موصوفة.

ــ إن الهدف المشترك بين" فوكو" و"نيتشه" هو تقويض الأبنية الميتافيزيقية على غرار ما قام به "هايدغر" و"ديريدا" و"دولوز" من أجل في الانفلات من القبضة الميتافيزيقية التي فرضتها الهيجيلية وأحياءا للذات التي أفل وجودها الأصيل.

خلاصة:

لقد عملت الجينيالوجيا على تقويض مختلف مقولات المطلقية والنسقية والرتابة فحطمت بذلك الأسوار العتيدة التي شيدتها الحداثة الغربية منتقدة بذلك كل ما توصلت إليه على مختلف الأصعدة، وكان من نتائج ذلك تحطيم كل الأصنام وإعلان أفول المقدس، ومن الناحية المنهجية شكلت الجينيالوجيا فتحا منهجيا جديدا نتج عنه ميلاد منهاج جديدة كالفينومينولوجيا والاركيولوجيا والتفكيكية والبنيوية .

**المحور الثالث**

**المنهج الاركيولوجي:**

**تمهيد:**

تميزت الفلسفة المعاصرة بتعدد المناهج ويعد المنهج الاركيولوجي الذي وضع آلياته الفيلسوف الفرنسي ميشل فوكو احد ابرز المناهج الفلسفية التي امتدت آلياته إلى مختلف الدراسات الاجتماعية والإنسانية فماذا نعني بهذا المنهج؟

**في تحديد مفهوم الاركيولوجيا :**

تعني الأركيولوجيا العلم الذي يُعنى بدراسة الحضارات التي شيَّدَها الإنسان قديما، باستعمال الأدوات والوسائل المختلفة بهدف الحفر والتَّنقيب عن الآثار والمعالم التي خلفتها تلك الحضارات؛ كما تتضمن كلمة أركيولوجيا البحث في الأصول الأولى للتشكل والبدايات الأولى لنشأة الفكرة، إنها إذن بحث في التاريخ، بهدف الكشف ما يسمى الشروط القبلية التي تحدد نمط معين في فترة تاريخية معينة، سواء كان هذا النمط معرفي أو فلسفي أو تاريخي.

وارتبطت لفظة "أركيولوجيا" بالفلسفة التحليلية المعاصرة التي تحاول تقويض الأصول الأولى لنشأة المعرفة وتفكيك الحقيقة الميتافيزيقية التي سيطرت على الخطاب الفكري الغربي، في محاولة لتجاوز الفلسفة القديمة وأطروحاتها حول القيمة والحقيقة والمركز، كما ارتبط المنهج الأركيولوجي في الفكر الغربي المعاصر بالفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو" الذي حاول من خلال أطروحاته المختلفة البحث عن البنى المعرفية والأصول الفكرية، ولكنه لم يستعمل اللفظ بالمعنى القديم لكلمة أركيولوجيا باعتبارها البحث عن الأصل لتمجيده والانطلاق منه لتشكيل معرفة جديدة، بل البحث عن بدايات نسبية لتشكل المعرفة. وهو بذلك محتاج إلى التاريخ من اجل تبدد خرافة الأصل، وخرافة البداية الأولى كما سنوضحه لاحقا.

تسعى "الأركيولوجيا" بصفتها منهج للحفر، والتنقيب والتعرية، في فعاليات الحياة ونصوص الوثائق والخطابات المحفوظة، إلى الكشف عن النظم المعرفية، التي تحكمها وتنظّمها في سياق واحد، كما يهدف البحث الاركيولوجي في مجال النصوص التاريخية الى الكشف عن ما يتضمنه من أحداث مدونة, أو أخرى مسكوت عنها، أو  أُقصيت أو قمعت الحقائق فيها، والبحث في طبيعة الظروف التي أنتجت نصوصه وفقها  والكشف مكنوناتها،إضافة إلى ذلك، فان منهج البحث الأركيولوجي يحفر وينقّب في الوثائق الرمادية، كما يعبر عنها المفكر الألماني "فريدريك نيتشه"، وهي الوثائق المهملة التي من غير المتوقع, أن يقرأ فيها ما يفيد أو يخرج عنها بمعلومة, مثل وثائق العقود المختلفة، المبرمة في حقبة تاريخية معينة، بين الدولة والفرد، أو بين الأفراد في المجتمع.

**المنهج الاركيولوجي عند ميشيل فوكو:**

استعمل "فوكو" مفهوم الأركيولوجيا لأوَّل مَرَّة في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" بالإضافة إلى أنَّ كتابه "مولد العيادة" كان يحمل عنوانا فرعيا وهو" أركيولوجيا النظرة الطبية وبعد نشر "فوكو" "الكلمات والأشياء" حمل هو الآخر عنوانا فرعيا، وهو "أركيولوجيا العلوم الإنسانية"، ثم "اصدر كتابه المعنون بـــ:"أركيولوجيا المعرفة" الذي أوضح فيه الآليات التي اعتمدها في بلورة المنهج الاركيولوجي.

استخدم فوكو هذا المفهوم للمنهج الذي وضعه في دراسته وتحليله للبنى المعرفيَّة الغربيَّة، حيث يُقِّرُّ في" أركيولوجيا المعرفة"، أنَّه أطلق على منهجه " إسم الحفريات"،(1) التَّي ستعمل على وصف الممارسات الخطابية بطريقة مخالفة لباقي المناهج التاريخية؛ ففي نظر "فوكو" أنَّ المناهج المعمول بها غير قادرة على وصف الخطاب وتحليله بالكيفية اللازمة " وانطلاقا من هذا يبرر "فوكو" » اعتماده علىالمنهج الأركيولوجي في قوله : « فقد سبق أن وجدت مناهج كثيرة قادرة على وصف اللغة و تحليلها بحيث لا يمكن لأ ي احد ان يزهو بنفسه ويُعجب بها، مُدَّعيًّا أنَّه يُضيف منهجا جديدا إليها (2) فاالمناهج المعتمدة في الدراسات التاريخية لا تخرج عن كونها تائهة بين جدران النسقية الرتيبة .

ومن هنا يطرح فوكو سؤالا مهما فيما يخص الجديد الذي ستقدمه الاركيولوجيا مقارنة بالمناهج الأخرى يقول فوكو : فماذا بوسع الحفريات أن تقدمه بالنَّظر إلى ما لم يكن في وسع وِّسْعِّ المناهج الوصفية الأخرى أن تقدمه (3 ) "يُجِّيب « فوكو » عن هذه الإشكالية بأنَّه استعمل لفظ الأركيولوجيا للدَّلالة على وصف الوثيقة، ولم يقصد اكتشاف بداية، أو الكشف عن عظام وهي رميم « (4) .

يعرف فوكو » الأركيولوجيا بقوله : « أمكننا استنادا إلى قانون الألفاظ والذي لا يُطابق قانون علماء اللغة ان نطلق على تلك الأبحاث اسم حفريات، وهو لفظ لا يَتضمن أيَّ محاولة للجري واللهث وراء البدايات كما لا يقرن التحليل باي سبر جيولوجي بل يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة لوصف هدفه الماقيل في مستوى وجوده وفي مستوى الوظيفة العبارية التي تمارس عليه والتشكيلة الخطابية التي ينتسب اليها والمنظومة العامة التي لاحتفاظه وظهوره فالحفريات تصف الخطابات كممارسات محددة في عنصر نظام الاحتفاظ والظهور.5**)**

يتَّضح من هذا، أنَّ منهجية النَّقد الاركيولوجي تسعى للكشف عن الأسس التاريخية التي تشكلت في ظلها الخطابات من خلال تحليل القطائع التي شهدتها مختلف الإبستيميات بحكم أنَّ الخطاب هو ما تسعى الأركيولوجيا إلى وصفه وتحليله ودراسته، إضافة إلى أنَّها تهدف أساسا إلى رصد نظم عن طريق تحليل الخطاب في مستوى ظهوره وأفوله واندثاره، ويتمثل ذلك في تصوُّر تاريخ الثقافات كما لو كان سلسلة من النُّظم المعرفية تتقاسم لفترات تاريخية دائرة الحقيقة (6) وبهذا يكون التاريخ الأركيولوجي، دراسة نقدية لمختلف الخطابات التي شكلت في فترة ما مركز الحقيقة.

ان التاريخ عند "فوكو" عبارة عن سلسلة من الأحداث المتقطعة التي لا تعرف الاتصال؛ فكل مرحلة تاريخية لها من الخصائص ما يجعلها تتمَيز عن باقي المراحل التي تليها؛ وبناء على هذا، تتَّجه الأركيولوجيا نحو تلك الانفصالات التي يشهدها الخطاب ، بالنَّظر إلى أهميتها في بلورة خطاب الحقيقة.

لقد قسم فوكو تاريخ الفكر الغربي ثلاث حقب كبرى اصطلح عليها تِّبَاعًا : عصر النهضة، العصر الكلاسيكي و العصر الحديث، 11 دون أن يكون بين هذه المراحل أي اتصِّال أو استمرار، بل فواصل وقطائع (7) (Des Ruptures). استنادا إلى هذا، سيعمل « فوكو »على تتبُّع مختلف المعارف التي تكوَّنت وظهرت في الحقب الزمانية الكبرى والمختلفة، تتبُّعًا تاريخيا وفقا لمنظور تحليلي أركيولوجي، كاشفا من خلاله عن البُنَى الدَّاخلية لمجمل الخطابات، بعيدا عن السياق التاريخي بالمفهوم الكلاسيكي الذي تعتمده المناهج الأخرى.

**الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار :**

يتداخل مفهوم الاركيولوجيا مع مفهوم تاريخ الأفكار إلى حَدًّ يصعب معه الفصل بينهما، ويرى "فوكو" ان تاريخ الأفكار لا يقف على جوهر المعارف والخطابات، بل يكتفي فقط بالسَّرد التاريخي، واقفا على الهوامش دون التَّعّمق في الماهية الأساسية التي تحتويها تلك المباني المعرفية التي اخضعت للتَّحليل ( 8).

تاريخ الأفكار يهتم بتحليل الآراء والتَّعليق عليها دون تحليل المعرفة، والكشف عن بنياتها الدَّاخليَّة التي جعلتها تظهر، ودون أن يُعنَى بتحليل الحقيقة المتضمنة في الوثائق التي يعرضها على الدراسة والوصف، إضافة إلى إغفاله للخلفيات التاريخية لتك الوثائق المحللة هذا ما يبعده عن الدقة في النتائج.

يقوم مؤرخ الأفكار بتتبع دائم لنشأة المفاهيم المختلفة، وكيفيَّة انتقالها من حقل إلى حقل آخر فيحين أنَّ الوصف الحفري، لا يُمتُّ إلى ما تم ذكره من خصوصيَّات تاريخ الافكار بأي صلة فالمهمة الأساسية للأركيولوجيا، لا تتمحور في البحث عن الأفكار والمعارف التي من شأنها أن تظهر أو تختفي في خطاب ما، بل إنَّ غايتها تتجسَّد في تحديد هذه الخطابات من حيث هي ممارسات تحكمها قواعد مُعيَّنة، فهي تنظر للخطاب على أنَّه وثيقة ، (9)، فيكون معول التَّحليل لأركيولوجي، مُوجَّهًا إلى مختلف البنى الخطابية.

والأركيولوجيا ليست مبحثا في التاريخ بما هو تحقق عيني في لحظة ما يتميز بالاكتمال، ولكنه البحث في الأصول المعرفية والقواعد الصورية لتشكل الخطابات التي تزعم قول الحقيقة عن الإنسان في فترة تاريخية معينة، فهي "أي الأركيولوجيا عند فوكو" تسلم بأن خطاب المعرفة يمكن أن يُدرس كظاهرة موضوعية ومستقلة، وهي لا تهدف إلى تحديد الأفكار والتمثلات والصور والموضوعات والهواجس التي تختفي أو تظهر في الخطاب، ولكن عن تلك الخطابات نفسها باعتبارها ممارسات تخضع لقواعد، وهذا ما يعني بوضوح التخلي عن دراسة الخطاب كما لو كان مجموعة من العناصرالدالة التي تحيل إلى قضايا ومضامين وتمثلات ومقاصد، مصدرها الذات والذرات**(10).**

مما تقدم يمكن القول إن الأركيولوجيا أصبحت منهج قائم بذاته فهي وصف وتحليل للخطاب الذي يعتبر موضوعها ومادة دراستها، وبهذا يتميز المنهج الاركيولوجي الفوكوي عن المنهج التأويلي واللساني والتاريخي، والاركيولوجيا ليست ميدانا من ميادين التاريخ أو فرعا من فروعة كما يوحي بذلك اسمها، وإنما هي مقاربة تقوم كبديل عن التاريخ وتحاول تجاوز الأسس الميتافيزيقيا التي تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة.

المراجع :

1 ــ ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، ص125.

2 ـ المرجع نفسه، الموضع نفسه

3 ـ المرجع نفسه، ص126

4 ــ الزواوي بغورة ، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو ، المجلس الاعلى للثقافة، 200، ص114.

5 ــ فوكو، حفريات المعرفة ، ص122.

6 ـ المرجع نفسه 126.

7 ــ المرجع نفسه 127

8 ــ ميشال فوكو، جينيالوجيا المعرفةنظام الخطاب ، ترجمة احمد السطانيوعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال المغرب ،ط 3 ،2008 ص128

9 ــ فوكو، حفريات المعرفة

**المحور الرابع**

**المنهج البنيوي**

**مقدمة :**

لقد شهد الفكر الغربي المعاصر سيطرة الاتجاه البنيوي على الكثير من مجالات المعرفة الإنسانية فقد حقق المنهج البنيوي نجاحا في الكثير من ميادين العلوم الإنسانية ( علم الاجتماع والانثروبوجيا مع "كلود ليفـى ستروس" **Strauss ،** وعلــم النفس مع "جاك لاكان"**Lacan**، وعلم اللغة مع"  **Saussure" De** و" تشومسكــــى **Chomskey**, والثقافية مع "ميشيل فوكو" **Foucault**، والأدب مع "رولان بارت" Barthes, والمذاهب السياسيــــة (الماركسية) مع "لـــوى التــوسير" **Althusser** ، فماذا نعني بالبنيوية وماذا نعني بالمنهج البنيوي؟

شكلت البنيوية جدلا فكريا بين الدارسين والنقاد والفلاسفة وعلماء الاجتماع، بحكم ما أثاره جهازه المفاهيمي المعقّد من إشكالات، وبحكم توغلها في شتى حقول المعرفة، من اللغة والادب الى الفلسفة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، فماذا نعني بهذا المفهوم ؟ هل البنيوية منهج أم اتجاه ومذهب فلسفي؟

**المعنى اللغوي لمفهوم البنية** :

تعني كلمة "البنية في اللاتينية Structura، في اللغة الفرنسية Structure وفي الإنجليزية Structure ويعني وضع الأجزاء في مبنى ما، وذلك من وجهة النظر الفنية المعمارية وقد استخدمت هذه الكلمة منذ منتصف القرن السابع عشر في ميدان العمارة والبناء(1)

**1 2 المعنى الاصطلاحي:**

يرى "جو بياجيه أن البنية مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة)تقابل خصائص العناصر( تبقى أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدّى حدودها أوتستعين بعناصر خارجية، وبكلمة موجزة : تتألف البنية من ميزات ثلاث: الجملة والتحويلات والضبط الذاتي(3)، وقد حدد جون بياجي للبنية

ثلاثة خصائص:

**ــ الشمولية:**

وتعني اتساق البنية وتناسقها داخليا، بحيث تتسم بالكمال الذاتي، فهي ليست وحدة مستقلة جمعت تعسفا، بل هي اجزاء تتبع أنظمة داخلية من شأنهاأن تحدّد طبيعة الأجزاء وطبيعة البنية ذاتها.

**ــ التحوّل:**

فالبنية ليست وجودا ثابتا، وانما هي متحركة وفق قوانين تقوم بتحويل البنية ذاتها إلى بنية فاعلة تسهم بدورها في التكوين والبناء وفي تحديد القوانين ذاتها.

**ــ الضبط الذاتي:**

أو الانضباط الداخلي البنية لا تعتمد على مرجع خارجها لتبرير أو تعليل عملياتها وإجراءاتها التحويلية بل من خلال أنظمتها الداخلية(4)

يعرّفها" كلود ليفي ستراوس": تحمل البنية طابع النسق أو النظام، فالبنية تتألف من عناصر من شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى (2) ، فالقيمة الحقيقية للبنية تكمن في تلك العلاقات الداخلية التي تربط عناصرها الداخلية ببعضها البعض.

البنيوية هي تلك الطريقة التى يتم من خلالها التبادل فى قطاع من المجتمع أو عبر المجتمع له، فلم تعد الوقائع الاجتماعية أشياء كما لم تعد أفكارا وإنما أصبحت بنيات، يقول "ليفى ستروس: اذا كان النشاط اللاشعورى أو اللاواعى للعقل يقوم على فرض الشكل على المضمون، وإذا كانت هذه الأشكال لا تتغير بالنسبة لكافة العقول سواء في الماضي أو فى الحاضر, بالنسبة للعقول البدائيــة أو المتحضرة, فإنه يكفينا أن نصل إلى البنية اللاشعورية أو اللاواعية الواقعة خلف كل نظام وكل عرف أو تقليد, كي نحقق التفسير السليم للأنظمة أو الأعراف أو التقاليد الأخرى، بشرط أن نمضى فى التحليل إلى أقصى مداه (1).

فالبنيوية منهج يضم كل الظواهر الاجتماعية, يهتم بالعلاقات بين الظواهر أكثر من اهتمامه بطبيعة الظواهر نفسها، كما يهتم بالإِنسان التى تدخل فيه هذه العلاقات فالتحليل البنيوي لا يتوقف عند المعنى التجريبي يفرضه علينا الواقع والذي يؤدى إلى إدراك العلاقات المادية التى تحقق الترابط بين عناصر المجموعة الواحدة بل يهدف التحليل إلى الكشف عن النسق العقلي الذي يزودنا بتفسير للعمليات الجارية في نطاق مجموعة بعينها.

ويعنى المنهج البنيوى بالتوصل إلى البنية النفسية أو الاجتماعية وهذه البنية لا توجد فى الوقائع ذاتها وإنما فيما وراءها، كما يهتم بتحليل الظواهر دون الاكتفاء بتسجيلها وملاحظتها، بهدف كشفالموضوع الكامن وراء الظواهر، أى نسق العلاقات أو البنيات المباطنة فى الظواهر الملاحظة.

**الأصول و المرجعيات الفكرية للبنيوية:**

يرجع الفكر البنيوي في نشأته وتطوره إلى مرجعيات فكرية وفلسفية متعددة تشكلت معالمه في مجالات الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ومن أهمها:ــ ظهور الفلسفة الوضعية مع أوغست كونت، التي جاءت ثورة على كل ما هو ميتافيزيقي -

ولاهوتي داعية واعتماد الخبرة الحسية أساسا ومرجعا لكل معرفة بشرية. ــ الفلسفة الماركسية التي وضعت مقولاتها المشهورة أسسا للحديث عن فلسفة البنية، انبثق -منها توجّهات معرفية عديدة، وآليات منهجية مختلفة، يمكن وضعها تحت فرضية: إنّ الصراع يتطلّب تثبيتا للمواقف، وأنّ تلك المقولات استطاعت دخول حيّز الطرح الموسوعي، ورسمت أحكاما تكاد تكون مطلقة، للإجابة عن تلك الأسئلة الخالدة، وتقديم رؤيتها حول:)الإله، والأنا، والبنية(5) خصوصا مع فكرة موت الإله التي استفاد منها الفكر البنيوي، فقام بعزل المبدع عن النص وجعله مكتفيا بنفسه من حيث الوظائف اللغوية والجمالية والدلالية. ـ المرجعيات اللسانية، كانت أفكار العالم اللغوي السويسري "دي سوسير" المتعلقة بفكرة النسق أو النظام والثنائيات المتقابلة ثنائية اللغة والكلام والدال والمدلول والدراسة الآنية التي يمكن عن طريقها وصف الأنظمة اللغوية، كانت هذه الأفكار تمثل البداية المنهجية للفكر البنيوي في اللغة (6)ــ "مدرسة الشكلانيين الروس" التي تشكّلت أفكارها البداية الأولى للبنيوية في مجال الأدب، حيث أسست لجهاز مفاهيمي جديد في دراسة الظاهرة الأدبية، حيث أصبحت الآثار الأدبية نفسها محورا للدراسة والنقد وإغفال المرجعيات التي تتصل بحياة المؤلف وبيئته وسيرته )2(، وهذا ما يسمى في الدراسات البنيوية بمبدأ المحايثة Immanence ، الذي يقوم بعزل الظواهر الإنسانية والاجتماعية عن سياقاتها المختلفة ودراستها من الداخل(7). الحركة النقدية الحداثية التي ظهرت في فرنسا، ومن أهم ممثليها "رولان بارت "و"ميشال فوكو" و"جاك دريدا"، فقد كان لأفكارهم النقدية التي شملت مجالات كثيرة كالتحليل النفسي والماركسية واللسانيات...، دورا هاما في تطور البنيوية والتحول إلى "ما بعد البنيوية(9(

**المنهج البنيوي عند ليفي ستراوس :**

يعدّ "كلود ليفي ستراوس" أبو البنيوية بامتياز، اذ معه برزت البنيوية كمشروع علمي يحمل سماتالمنهج العلمي في مجال الانتروبولوجيا قبل أن تمتد إلى مجالات معرفية أخرى،لقد اكتشف " كلود ليفي ستراوس" أنّ البنيوية يمكنها أن تخرج العلوم الإنسانية والاجتماعية من المأزقالإبستمولوجي، لتعيد دراسة المنتوج الثقافي الإنساني، دراسة علمية موضوعية تقوم على إنكار الذات وتجاوز كافة التصورات القبلية إلى موضوعية النسق اللغوي، انطلاقا من النموذج الفنومنولوجى اللغو الذي كان له الأثر الواضح في منهج "ستراوس"، خصوصا مفهوم" البنية" و"النسق، لقد قام "ليفى ستروس" بتطبيق هذا النموذج الفومنولوجــى على الوقائـــع الاجتماعية. يمكن إجمال خصائص المنهج الاركيولوجي عند "ستراوس" في مايلي:التأكيد على الكلية أو الشمول حيث تقوم الدراسة على مستوى كلى وليس على مستوى جزئى. التأكيد على أولوية الكل على الأجزاء، ثم يتم تفسير الكل والأجزاء عن طريق العلاقات القائمة بين الأجزاء وارتباطهـا بالكـل. دراسة هذه الشبكة المعقدة التى تجمع عناصر الكل توصلا إلى البنيات العميقة، وذلك من خلال نماذج يتم تشكيلها. وقد تجلى تأثير المنهج اللغوي البنيوي في فكر "ستراوس" في ثلاثة مبادئ وهي :

ــ ضرورة دراسة اللغة في ذاتها قبل ان تدرس في علاقاتها بالنظم الأخرى أي اولوية البنية الداخلية للغة على الوظائف الخارجية لها، و ما يقابله في الدراسات الاجتماعية والثقافية ان يكون الموضوع مجموع من المعطيات ذات ذات التجانس والاستقلال الذاتي ويعد اختيار هذه المجموعة خطوة منهجية حاسمة .ــ ضرورة تفكيك الكلام إلى اصغر الوحدات الممكنة، ويقابل هذا المبدأ عند "ستراوس" في دراسته للظواهر الاجتماعية في دراسته للعناصر والوحدات البسيطة والروابط والعلاقات بين الظواهر الاجتماعية .ــــ ضرورة تحديد عناصر اللغة عن طريق علاقاته المتبادلة التي تقوم بين العناصر، (8) ويقابل هذا في الظواهر الاجتماعية الكشف عن العلاقات بين العناصر التي تتكون منها الظواهر، اذ يمكن أن نعد قوانين الزواج وأنظمة القرابة نوعا من الكلام أي مجموعة من العمليات المخصصة لتامين نوع من الاتصال بين الإفراد والجماعات،(9)، وما يمكن أن يقال على أنظمة القرابة يمكن ان يقال علىالأسطورة وباقي الظواهر الاجتماعية والثقافية.

ويتجلى تأثير النموذج اللساني في فكر "ستراوس" في الفرضية التي يقوم عليها مشروعه الانتروبولوجي وهي أن الظواهر الاجتماعية والثقافية لها بنية تشبه طبيعة اللغة وعليه يمكن تعميم المنهج المطبقفي اللسانيات على هذه الظواهر الاجتماعية المعقدة فإذا كانت اللغة تتكون من عناصر صوتية بسيطة تتحد في ما بينها لتشكل معنى دون ان يكون هناك معنى لأي عنصر منها على حدى كذالك فان الظاهرة الاجتماعية لاتحمل في ذاتها أي مدلول خاص ولكن علاقتها بغيرها من الظواهر هو الذي يمنحها المعنى ومن هنا ان ما يجب في الاعتبار ليس الوقائع ذاتها وانما العلاقات بينها، ويرى "ستراوس" أنّ الأوجه المتعددة للفاعلية البشرية تتصف بكونها أنظمة للعلامات،وهي كثيرة ومتنوعة، تتشكل من أنظمة رمزية دالة( 10) ، خصوصا، لمّا يتعلق الأمر بالأساطير والعلاقات التي تربط بين القبائل والعشائر لذلك لا يمكن تفسير الظواهر وأنساق القرابة من خلالالملاحظة التجريبية المباشرة وحدها، بل يجب دراستها بوصفها مجموعة من العلاقات الرمزية (نماذج) (11

لقد كان هدف ستراوس من خلال أعماله المتعددة سواء في"علم الإناسة البنيوي أو في "الأنثروبولوجيا البنيوية"، أو في "الأبنية الأولية للقرابة " أو في "الدراسة البنيوية للأسطورة"، الوقوف على الأبنية التي تشترك فيها الثقافات الإنسانية، انطلاقا من المسلمات الأساسية التي يقوم عليها منهج "ستراوس" وهي: أن الإنسان يتحدد بوظيفته الرمزية ومن هنا يجب ان يدرس لغويا ، والعقل البشري جزء من الكون وهو وجود سابق للتاريخ وأنه في بنيته التشكيلية واحد يفعل ويؤثر في التاريخ ولدى جميع الشعوب بالكيفية نفسها ، للعقل بنية ثابتة فليس هناك من تقدم في بنية العقل ، بل هناك تقدم في المعرفة وبهذا يخالف هذا الموقف الموقف الداعي الى القول بوجود الفكر ماقبل منطقي.

المراجع:

1 ــ . صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص 82

2 - إبراهيم زكريا: مشكلة البنية، مكتبة مصر، دط.، د.ت، ص 25

3 جون ياجي: مشكلة البنية، تر عارف منيمنة وبشير أوبري، منشورات عويدات، لبنان، ط3 1982 ص 80

4 ـ المرجع نفسه ص 9 ـ 10

5 ــ. صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص 80

6 المرجع نفسه ص81

7 بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص 26

8 احمد ابو زيد المدخل الى البنائية ص 88 90

9 ليفي ستراوس الانتروبولوجيا البنيوية ج1 ص 81

**المحور الخامس**

**أزمة المنهج في الفكر الفلسفي والعلمي المعاصر**

**من ضرورة المنهج إلى ضد المنهج**

**مدخل:**

تعد ضرورة تحديد منهج البحث والممارسة العلمية والفلسفية المبدأ الأساس الذي قامت عليها تصورات الفلاسفة والميتودولوجيين من "أرسطو" إلى "كارل بوبر" ومرورا ب "فرانسيس بيكون" و"ميل" "وديكارت"، الى فلاسفة التحليل المعاصر، فقد جعل "أرسطو" من القياس، المنهج الوحيد والضرور لقيام العلم، وألح "ديكارت" على أن البحث في المنهج يعد من أهم المشكلات، وأولاها عناية في مهمة الفيلسوف، فالشعور بضرورة المنهج هو أول ما يلزم من أدوات التفلسف([[29]](#footnote-30))، طبقا لمقولته:"خير لنا ألا نفكر، من أن نفكر بدون منهج"، واعتبر "الاستقراء" عند "التجريبية المنطقية" الطريقة الوحيدة واللازمة لتخليص العلم من المتافيزيقا، وجعل "كارل بوبر" من قواعد التكذيب شرطا لازما لتمييزالعلم عن اللاعلم، وجعل فلاسفة التحليل المعاصر من التحليل المنطقي المنهج الوحيد لقيام فلسفة علمية، لكن التحولات التي عرفها الفكر العلمي والفلسفي المعاصر أدى إلى إعادة النظر في هذا المفهوم العقلاني الصارم للمنهج ، الذي لم يعد صالحا لفهم التاريخ المعقد للعلم والمعرفة والتنوع الإنساني، بل أن أكثر العقبات الابستمولوجية التي تقف أمام تقدم الفكر هي في حقيقة الأمر هي عقبات منهجية، وتجاوزها إنما يعني رفض هذه المنهجية وابتــــــــــكار وسائل جديدة تمكننا من تجاوز تلك العقبات ([[30]](#footnote-31))، وهذا ما جعل الكثير من الميتودولوجين وفلاسفة العلم المعاصرين يدعون إلى تجاوز فكرة المنهج الواحد، والدعوة إلى التعددية المنهجية، فليست هناك طريقة محددة للابتكار والكشف العلمي في أي مجال من مجالات المعرفة البشرية.

يقول "كلود برنار" (1813 ـــ 1878) Claude Bernard :« عندما أراد فلاسفة من أمثال "بيكون"، أو غيره ممن هم أقرب إلينا أن يرتبوا في نظام شامل قواعد للبحث العلمي فإنهم استطاعوا أن يعجبوا أناسا لا ينظرون إلى العلم إلا من بعيد، لكن مثل هذه الأعمال لا يجد فيها العلماء الناضجون فائدة، فإنها تضللهم بتبسيطها الخادع للأمور، بالإضافة إلى أنها تعوق نشاط أذهانهم بإثقالها بجملة من القواعد المبهمة أو غير القابلة للتطبيق التي يجب المسارعة إلى نسيانها إذا ما أراد الإنسان أن يدخل باب العلم وان يصبح مجربا حقيقيا ([[31]](#footnote-32) )

كما رفض "باشلار" (1884-1962)  G.Bachlard وجود منهج علمي واحد صالح لكل بحث علمي ولكل معرفة، فكل تقدم في الفكر العلمي، وكل تجربة جديدة كفيلة بأن تغير الفكر العلمي برمته، لا المناهج فحسب، فلكل علم منهجه الخاص، ومفاهيمه الخاصة التي تتلاءم والمرحلة التي هو عليها هذا العلم أو ذاك، وكل خطاب حول المنهج العلمي سيكون دائما خطابا سياقيا، ولن يتصف بالبنية النهائية"([[32]](#footnote-33))، بل إن العلم حين يغير من مناهجه يصبح أكثر منهجية .

ويرى "**مايكل بولاني**": (1891-1976) M.Polany  "([[33]](#footnote-34)). أن التقيد بمنهج واحد، ووحيد من مناهج العلم، يؤدي إلى الحد من النشاط الديناميكي للمعرفة الإنسانية، فلا وجود حسب "بولاني" لإطار معرفي واحد يمـكن وصفـه بأنه عقـلاني وموضوعـــــي، فلكل عالم وجــــهة نظـره الخاصة وتطلــــعاته المعرفية، وخلفـــــيته المعرفيــــة والإيـــــديــــولوجيــــــة ،ومن ثم فالإبداع لا يأتي حسب "بولاني"عن طريق اتباع منهج محدد ثابت، ولا من الخبرة المباشرة للواقع التجريبي، بل من خلال المشاعر والأحاسيس والتخمينات والحدوس والخيال والتعهدات الإنسانية، وهو ما يعرف عند "بولاني" بمصطلح: **" المعرفة الكامنة"**

كما رفض "**توماس كون**"([[34]](#footnote-35)) **(**1922-1996) *Thomas* *Kuhn* وجود قواعد ومعايير (عقلانية) خارجية تحدد الممارسة أو البحث العلمي، باعتبار أن هذه القواعد تخضع للتطور والنقد أو الفحص عن طريق الممارسة والبحث ذاته، فالعلماء والباحثين في لحظة البحث والإبداع والكشف العلمي لا يصغون إلا لصوت النتائج والحقائق التي توصلوا إليها، بغض النظر عن المنهج الذي اتبــعوه بل مهمة فلسفة العلم هي البحث في الأسس الفلسفية والأبعاد النفسية والسوسيولوجية التي بني عليها الكشف والتقدم العلمي بشكله الواقعي كما مارسه العلماء من خلال تاريخ البحث العلمي ذاته لا عن طريق وصف المناهج والطرق التي لم يلتزم بـها العلماء أصلا، فلا وجود لمنهج علمي شامل وكامل يستطيع أن يفسر حركية تطور العلم، فكثير من التحولات العلمية حصلت دون إتباع منهج بعيــــنـــه.

ولم تقتصر أزمة المنهج على العلوم الطبيعية بل امتدت الى مجال العلوم الإنسانية، إذ يرى "غادامار"' أن المنهج لا ينتج في النّهاية إلا ما يبحث عنه أو لا يجيب إلا على الأسئلة التي يطرحها، إنّ أي منهج يتضمن إجاباته ولا يوصلنا إلى شيء جديد”، فالحقيقة (في العلوم الإنسانيّة) ليست بنت المنهج؛ أو هي على الأقل، ليست حكراً على التّعامل المنهجي مع العالم، بل هي نتيجة الخبرة المباشرة بالعالم، أو الانفتاح على العالم عبر الفهم.

فالمنهجحسب "غادامر" لا يعد الطريق الوحيد لبلوغ الحقيقة في العلوم الإنسانية أو التاريخية، وتكفي العودة إلى كتاب غادامر “الحقيقة والمنهج” لمعرفة دعوته الى تجاوز الطابع المنهجيّ للحقيقة في العلوم الإنسانية، بل إن عنوان الكتاب نفسه قد يشكل عتبة أولية للقراءة تسهم منذ البداية في فضح تصورات "غادامر" حول فكرة المنهج، إذ أن كلمة المنهج المعطوفة على كلمة الحقيقة في العنوان، تضعنا منذ البداية أمام تساؤل حول ماهية العلاقة بينهما، لذلك يذهب بعض الباحثين إلى اعتبار أنّه كان من الأنسب لـ غادامر أن يطلق على كتابه عنوان “الحقيقة واللا منهج”، في حين يذهب البعض الأخر إلى أن العنوان نفسه “ينطوي على تهكم ، فالمنهج ليس الطريق إلى الحقيقة. بل على العكس، الحقيقة تتملص من”الإنسان المنهجي“وتفلت منه”.

ويعد فيلسوف العلم المعاصر"بول فيراند" من أشهر فلاسفة العلم مناهضة للمنهج، وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل في ما يلي .

**من المنهج الى" ضـــــــد المنـــــهــــــــــــــج":contre la méthode**

يعد موقف فيلسوف العلم المعاصر "بول فيراند" (1924 ــــ 1994) Paul Feyrabend من المنهج من المواقف الأكثر جرأة وتميزا في فلسفة العلم المعاصرة، ويكمن هذا التميز في أن "فيرابند"قد نقل مجال البحث، من التساؤل عن المنهج الأكثر فعالية، والأكثر دقة وموضوعية، إلى التساؤلعما إذا كان هنالك حقا منهجا كليا، ثابتا، يتوجب إتباعه، والالتزام بقواعده لفهم ودراسة هذاالواقع العلمي المعقد.

ليس ثمة ــــــــــــــ حسب"فيرابند" ـــــــــــ "منهج علمي، ولا توجد مجموعة من الإجراءات أو مجموعة من القواعد تشكل أساسا لكل نموذج بحث علمي وضمانا له، فعلى الرغم من وجود أنماط للنجاح في العلوم،إلا أنه ليس هناك منهج ثابت، ولا يمكن أن يكون ثمة منهج كلي، فالانجازات التي تمت في مجالالعلوم لا يمكن أن تعزى لوجود مبادئ عامة، تغطي كل المجالات، فلا توجد حقيقة كلية، ولا معاييمحددة للمعرفة والعقل، وحتى وإن كانت المعايير والقواعد الميتودولوجية مطلوبة من أجل السير العقلاني والمنطقي للبحث (و خاصة البحث العلمي) فانه يتوجب ألا نجعل من تلك المعايير والقواعد، المعايير الثابتة والوحيدة، لأن ذلك سيكبح مسيرة العلم، خاصة إذا كانت تلك القواعد والمعايير تعبر عن تصورات مذهبية.

كما أن الالتزام الصارم بقواعد المنهج، يؤدي إلى خنق القدرات العقلية، وكبح قوة الخيال، والحد من القدرات الإبداعية، يقول فييرابند:  »فالفكرة القائلـــة بأن العلم يمكن له، وينبغي لــه أن ينتظموفقا لقواعـــد ثابتة وكـليـة، هـي فكرة مــــثالـية وذات بريق خادع، فهي مثالية لأنـها تتضمن تصـــــورا مفرطا في البساطة حول ما يــملكه الإنسـان مـــــــن استعدادات وقدرات، وحول الـظـــروف التي تشجــعــــها على النمو، وهي بــــراقـــة خادعــــــة من حـــــــيث أن محاولــــة فرض مثــل هذه القواعد لا تخــــلو من جــــعل الزيــــادة في كفاءتنا المهنية لا يكون إلا على حساب إنسانيتنا، فضلا عن أن هذه الفكرةمـضرة بالــعلم، لأنها تهمل الشــــــروط الفـيزيــــائية والتاريخيـــــة الـمعـــقــــدة التي تؤثر في عملية التحول العلمي، إنها تجعل مشروعنا العلمي أقــــل مرونـــــة، وأكثر دوغماتـــيـــة« ..([[35]](#footnote-36))

إن فكرة الالتزام بقواعد المنهج التي ميزت معظم الميتودولوجيات في فلسفة العلم الكلاسيكية والمعاصرة تقوم حسب "فيرابند" على مسلمة خاطئة، وهي الاعتقاد بوجود منهج وحيد ينبغي الالتزام به في الممارسة العلمية، وأن هذا المنهج هو السبيل الوحيد لتحصيل المعرفة واكتشاف الحقيقة.

ويستند "فيرابند" إلى تاريخ العلم للبرهنة على بطلان هذا الاعتقاد حيث يقول: » إن فـــكرة وجود منهج ينــــــطـوي على مبادئ صارمة وثابـتـة تحكم مسيرة العلم، تواجهـها صعـوبات جمة عنــــــد مجابهتهـــــا بنتائــــج البحث التاريخي، إذ أنــه ليـــــس ثمــــــة قاعــدة واحدة مـــــــهما كانت مؤسـسة وراســـخــــة في حـــقــــل الابستمـــولوجيا، لم يتم انــتهاكها ولو لمرة واحــدة، وهــــذه الانتـــــهاكات لقـــــواعــــد المنهــــج، لــــيس حوادث عرضــة، وليست ناتجــة عن نقــص في مــعارفنــــا، أو عن عــدم وعـي يمكن تداركه، بل هي عــلى العكس ضـــروريـــة للتـــقـدم العــــــلمي، إن الأحداث الهـامــــة والتــــــطورات العلميـــــة الكبــــرى، كإبــــدا المذهب الـــــذري الــــــقديم، والثــــــــورة الكوبرنيــــــكية، وظــــهور المذهب الذري الحديث، والنشــــوء المتدرج للميكانيكا الموجيــة للضــــوء، لم تكن لترى النور لولا أن ، بعض العـــلماء والمفكرين، قد قرروا أن لا يلتــــزموا بقــــــــواعد محـــددة وثابتــــة، أو لأنهـــم اخترقوها أو تخطوها عن غير قصد. «([[36]](#footnote-37))

كما أن تاريخ العلم، وتاريخ المنهج ذاته يكشف لنا عن عدم وجود منهج محدد لتحصيل المعرفة واكتشاف الحقيقة، فقد كانت المعرفة مؤسسة على التأمل والمنطق، ثم أدخل "أرسطو" إجراء تجريبيا أكثر تطورا، بيد أن "ديكارت"، و"غاليلي" استبدلاه بمناهج ذات طابع رياضي، ثم انصهر كله في نزعة تجريبية متطرفة، غير أن هذه الإعاقات والانتهاكات لهذه المناهج، لا ينبغي أن تؤخذ كباعث على استبعادها ([[37]](#footnote-38)) فكل هذه المناهج ضرورية لتطور العلم.

إن هذه الممارسة الحرة أو عملية تجاوز المنهج القائم ليست فقط مجرد واقعة أثبتها تاريخ العلم، ولكنها ضرورية لنمو المعرفة وتقدم العلم، وذلك لأن سيطرة المنهج الواحد من شأنه أن يؤدي حسب "فيرابند" إلى تقليص مساحة العلم، ويحرمنا من نظريات كثيرة قد يحالفها الصواب في توسيع معارفنا، فليست هناك مناهج أو قواعد ثابتة صالحة صلاحية شاملة للممارسة والبحث العلمي، يقول "فيرابند" : »إن فكرة منهج كلي راسخ والتي تعــد مقياسا ثابتا للوفاء بالمراد، بل وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة، إنما هي فكرة غير واقعية مثلها في في ذلك مثل الفكرة التي تقول بأداة قياس راسخة يمكنها أن تقيس أي كتلة من دون أي اعتبار للظروف المحيطة بها، إن العلماء كثيرا ما يعدلون معاييرهم وإجراءاتهم، ومقاييس العقلانية عندهم، لأنهم يتحركون إلى الأمام، ويدخلون مجالات بحث جديدة« [[38]](#footnote-39))

وعلى هذا الأساس يعارض "فيرابند" كل الميتودولوجيات التي التي تفترض وجود معايير وقواعد ثابتة كلية، ولا تاريخية، ولا يجب أن نفهم من دعوة "فيرابند" إلى "ضد المنهج"، أو "اللامنهج" non-méthode أن البحث العلمي يسير خبط عشواء، ودون أية قواعد أو إجراءات عملية، أو أنه بنفي المنهج مطلقا، وإنما يعني "اللامنهج": لا يوجد منهج علمي محدد، كلي ولا تاريخي، وليست هناك مبادئ وقواعد أو شروط مسبقة ثابتة ونهائية تحدد منهج العلم ومسيرته، فاللامنهج هو إجراء فوضوي، في مقابل الالتزام المتزمت بالقواعد والمعايير العقلانية، والغرض منه تحرير العلم من سلطة المنهج ،كما أن "اللامنهج"يعني عدم فرض منهج معين، أو طريقة بحث معينة، ثم العمل على قولبة موضوع الدراسة أو البحث داخل ذلك الإطار المنهجي، لأن ذلك لا يناسب الوضع الحقيقي للعلم فقواعد وإجراءات البحث العلمي تتحـدد بظروف وأهلية البحث ذاته ومعايير الحكم عليها، وتعديلها أو تغييرها لابد أن تكون متكيفة مع العمليات والمواضيع التي يبحث فيها([[39]](#footnote-40))، فالعلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث وليس لإتباع قواعد معينة، ومن هنا فان "فيرابند" لا يرفض كل الميتودلوجيات السائدة بل يرفض طابعها الإيديولوجي المتمثل في النزعة الكلية واللاتاريخية التي تتصف بها.

ويستدل"فيرابند" على رفضه للمنهج الواحد القائم على قواعد ومعايير ثابتة بأن العلم ظاهرة معقدةوليس نسقا بسيطا منظما، "فكل وضعية علمية واقعية، هي وضعية معقدة، تنمو بكيفية غير قابلة للتوقع ولذلك فانه من العبث أن نتمنى العثور على المنهج الذي يمكن العالم اتباعه.

كما أن العلم ليس نشاطا عقلانيا خالصا، تحكمه مجموعة من القواعد الميتودولوجية والمنطقية، فقد أثبت تاريخ العلم أن العوامل اللاعقلانية، كالخيال، والحدس، والعاطفة، والأسطورة، لها دور كبير في تطوره، كما أن العلماء لم يتقيدوا دائما بهذه القواعد المنطقية والمنهجية، ويعد "غاليلي"، أهم مثال في تاريخ العلم يسترشد به "فيرابند" لإثبات فكرة أهمية التحرر من القيود والمناهج التقليدية، والرأي الشائع والأفكار السائدة وتبني الفروض المعاكسة، وذلك من خلال محاولة "غاليلي" الدفاع عن النسق "الكوبرنيكي" المتعارض مع النسق الأرسطي السائد آنذاك، فعندما أعاد "كوبرنيك" إحياء الفكرة الفيتاغورية عن حركة الأرض، اعترضتها صعوبات تتجاوز تلك التي اعترضت "النسق البطليمي".

وقد دعم "غاليلي" حججه في الدفاع عن حركة الأرض، »بالاستناد إلى **وسائل لاعقلانية** كالدعاية والحيّل النفسية، وأساليبه وتقنياته البارعة في إقناع خصومه، لأنه يكتب باللغة الايطالية بدل اللاتينية، واستنجاده بأشخاص يعارضون الأفكار القديمة ومبادئ التعلم وقواعد المعرفة المرتبطة بها. «  ([[40]](#footnote-41))

إن دفاع "غاليلي" عن الكوبرنيكية لم يقم حسب "فيرابند" على أسس عقلية ومنطقية، بل تدخلت في ذلك اعتبارات لاعقلانية،ومن دونها ما كان للثورة الكوبرنيكية أن تحدث هذا التقدم في العلم، ذلكلأن تقبل الأفكار الجديدة، والنظريات التي تتعارض مع الواقع المألوف، عادة ما يكون عن طريق وسائل غير عقــــلانية كالدعـــايــــــــة والعواطف والنظريات الخاصة، وتحتاج هذه الوسائل غير العقلانية إلى التمسك بها والإيمان بها حتى تظهر العلوم المساعدة والحقائق، والمناقشات التي تحول هذا الإيمان إلى معرصلبة ([[41]](#footnote-42)).

ولكن إذا كان "فيرابند" يعارض مشروع العقلانية القائم على المنهج الواحد الثابت، فما هو البديل الذي يقدمه في مقابل المنهج العلمي بالمعنى السابق؟ وهل يطرح "فيرابند" منهجا مغايرا ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال تكمن في ما يعرف عند "فيرابند"بالتعددية المنهجية .

**من وحدة المنهج إلى التعددية المنهجية:**

إن رفض "فيرابند" لوجود منهج علمي كلي ولا تاريخي، ورفضه للعقلانية العلمية القائمة على القواعد والمعايير الثابتة، ونقده لكل الميتودولوجيات المعيارية، لا يعني وقوعه في دوغماتية بديلة،طواستبدال قواعد ومناهج بأخرى، بل هي دعوة إلى الاعتراف بأن كل المناهج، وكل الأفكار مقبولة،وهي دعوة ضد التنميط والأحادية، ويتجلى ذالك في قوله: »ليست لدي نية في استبدال مجموعة قواعد عامة بأخرى، بل مقصدي هو إقناع القارئ، بأن كل الميتودولوجيات حتى أكثرها وضوحاوبداهة لها حدودها، وأفضل طريقة لإثبات ذلك هي بيان حدود ـــــ بل لا عقلانية ـــــــــ بعض القواعد التي لديها الحظ في أن تعتبر من قبل البعض أساسية « ([[42]](#footnote-43))

وعلى هذا الأساس يدعو "فيرابند" إلى التعددية المنهجية، التي يعتبرها السبيل الأمثل لتحقيق التقدم في العلم والمعرفة، ذلك لأن وحدة الرأي، ووحدة المنهج تؤدي إلى كبح الخيال وإعاقة العلم، والحد من القدرات الإبداعية للإنسان، كما أن وحدة الرأي كما يقول"فيرابند" قد تكون مناسبة للكنيسة والضعفاء والراغبين في إتباع أحد المستبدين أو الطغاة، لكن تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد الذي يتناسب مع النظرة الإنسانية([[43]](#footnote-44)).

إن التعددية المنهجية التي يدعو إليها "فيرابند" تعددية تؤمن بوجهات النظر المختلفة، وبالبدائل النظرية المتعددة وكل الأفكار والفروض والنظريات، حتى تلك التي تم نبذها في الماضي عن طريق منافسيها، لأنها قد تفيدنا في توسيع نطاق معارفنا

إن دعوة "فيرابند" إلى التعددية المنهجية، ورفض المنهج الواحد، وإن كانت تتفق في بعض أوجهها مع وجهة نظر بعض فلاسفة العلم المعاصرين، إلا أن أطروحة "فيرابند" حول المنهج والتعددية المنهجية تختلف عن هذه المواقف، ذلك إن السؤال عن المنهج عند "فييرابند"ــــــــــ مبدئيا ـــــــــ هو سؤال زائف، فليس للعلم منهج معين يمكن تحديده مسبقا والبحث في المنهج عبث لا طائل من ورائه، ومن زاوية أخرى ، فان رفض "فيرابند" للمنهج الواحد وتبنيه للتعددية المنهجية والنظرية، كان الغرض منه تخليص العلم من كافةالقيود والمعوقات التي كبلته بها الميتودولوجيات المعيارية من جهة، والرغبة في أنسنة ظاهرة العلم من جهة أخرى » فالتعددية ليست مهمة للميتودولوجيا فقط بل أيضا تشكل جزءا أساسيا للنظرة الإنسانية «.([[44]](#footnote-45))

إن العلم في تصور فييرابند ليس شبكة من المعادلات الرياضية والعلاقات المنطقية ، بل نشاط إنساني متدفق تشارك فيه كل الفاعليات الإنسانية، العقلية واللاعقلية، ومن ثمة فالمناهج اللاعقلية يمكنها أن تفيد العلم كالمناهج العقلية تماما، فالعقل والمنهج العقلاني هو أحد أوجه تلك النظرة الإنسانية لا وجهها الوحيد.

إن العقل العلمي الذي يؤمن به "فيرابند" هو ذلك العقل المتفتح الذي يعترف بوجود اللامعقول وما يتضمنه من مظاهر عدم الانتظام والتناقض، والثغرات المنطقية، والأساطير والخيال ... فكل إبداع، وكل ابتكار، يتضمن قسطا مما يتجاوز العقل، والعقلنة تستطيع فعلا أن تفهمه بعد الاطلاع، لا قبله ([[45]](#footnote-46)) فالعقل المتفتح قابل لأن يناقش ويتفاعل مع أي شيء، وكل شيء قد يكون من شأنه أن يسهم في تقدم العلم، فكل المناهج، وكل الآراء مقبولة .

لقد كانت أراء فيرابند حول المنهج دعوة ضد النمطية وضد وحدة النظر الى الحقيقة من وجهة واحدة وضد سيطرة المنهج الغربي ودعوة الى التفتح والانفتاح على مختلف الثقافات التي تم اقصاؤها باسم الموضوعية والعقلانية والمنهج الواحد.

1. 1 - Lalande , André , *Vocabulaire Technique et Critique de Philosophie*, P.U.F.,France, 17ème éd.,1991, p.54 [↑](#footnote-ref-2)
2. - لالاند، أندري، معجم مصطلحات الفلسفة التقنية والنقدية، المجلد الأول، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الثانية، 2001، ص-ص. 64، 65 [↑](#footnote-ref-3)
3. - عثمان أمين، ديكارت، مكتبة القاهرة، ط5، 1965، ص. 72 [↑](#footnote-ref-4)
4. - نسبة إلى وليام الأوكامي William d’Ockham (1287-1347) فيلسوف انجليزي ذو نزعة اسمية تجريبية، يقوم منهجه على مبدأ الاقتصاد في الفكر إذ لا يجب الإكثار من الكيانات إلى الحد الذي يتجاوز ما تدعو إليه الحاجة ويذهب برتراند راسل كثيرا إلى تحكيم هذا المبدأ. [↑](#footnote-ref-5)
5. 2- Spinoza, *Ethique*, PUF, Paris, 2010, p. 21 [↑](#footnote-ref-6)
6. - Leibniz, G.W., *Principes de la nature ou Monadologie*, PUF, Paris, 1986, Intro., p.1 [↑](#footnote-ref-7)
7. - فيتغنشتاين، لدفيج، تحقيقات فلسفية، ترجمة :عبد الرازق بنور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، § 109، ص. 195 [↑](#footnote-ref-8)
8. - .لوديغ فيتجنشتين : "**رسالة منطقية"** ،ترجمة عزمي إسلام ‘المكتبة الانجلو مصرية ، ط1 ، 1968 ، ص4 [↑](#footnote-ref-9)
9. - زكي نجيب محمود : "**موقف من الميتافيزيقيا"** دار الشروق ، القاهرة ط3 1987 ، ص 23 [↑](#footnote-ref-10)
10. - A. J. Ayer : **langage, vérité et logique** , Traduit par J. Ohana (Paris : Flammarion, 1956 p. 37. [↑](#footnote-ref-11)
11. - المصدر السابق، العبارة: 4.112، ص. 91 [↑](#footnote-ref-12)
12. - مور، ا.ج، كيف يرى الوضعيون الفلسفة، تعريب وتقديم: نجيب الحصادي، الدار الجماهرية، الطبعة الأولى، 1994، ص.154 [↑](#footnote-ref-13)
13. - فيتغنشتاين، رسالة منطقية فلسفية، مصدر سابق، العبارة: 4,003، ص. 83 [↑](#footnote-ref-14)
14. () دكتور زكي نجيب محمود: في مفترق الطرق، دار الشروق،القاهرة 1941، ص 44 [↑](#footnote-ref-15)
15. () المرجع السابق، ص 47-48 [↑](#footnote-ref-16)
16. - نقلا عن محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص. 103 [↑](#footnote-ref-17)
17. حسيبة مصطفى، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان، ط - 1 ، 2009 ، ص 157 . [↑](#footnote-ref-18)
18. نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ترجمة: محمد الناجي، المؤسسة أفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2002 ص 11 [↑](#footnote-ref-19)
19. نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته ، ص 9 [↑](#footnote-ref-20)
20. نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص 14 [↑](#footnote-ref-21)
21. المرجع نفسه، ص 14 ـ 15 [↑](#footnote-ref-22)
22. نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته ، ص 15 [↑](#footnote-ref-23)
23. نقلا: بن مزيان شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ،2004 ص36 [↑](#footnote-ref-24)
24. نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، المصدر السابق، ص - 29 [↑](#footnote-ref-25)
25. المرجع نفسه 151 [↑](#footnote-ref-26)
26. بن مزيان شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة ص 27 [↑](#footnote-ref-27)
27. ــ ميشال فوكو، جينيالوجيا المعرفة، ص 67 [↑](#footnote-ref-28)
28. ــ المرجع نفسه ، ص 36. [↑](#footnote-ref-29)
29. -عثمان أمين : **ديكارت**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1969، ط2، ص 77-78 [↑](#footnote-ref-30)
30. -حسن عبد الحميد: **دراسات في الابستومولوجيا**، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1992، ص 232-233 [↑](#footnote-ref-31)
31. C Bernard: introd a l etude de la medicine experim .Flammarion Paris 1952 p298 [↑](#footnote-ref-32)
32. - غاستون باشلار: **الفكر العلمي الجديد** ، ترجمة عادل العوا، تقديم جيلالي الياس، موفم للنشر، الجزائر، 1994، ص151. [↑](#footnote-ref-33)
33. 3 ــ **مايكل بولاني**: (1891-1976) M.Polany: فيلسوف علم، وابستمولوجي ألماني، ولد ببودابست، لأسرة يهودية، اشتهر بنزعته النقدية المناهضة للنزعة الموضوعية في العلم، فالمعرفة العلمية عند بولاني هي **معرفة شخصانية**، أو **معرفة كامنة** من مؤلفاته: **العلم والإيمان والمجتمع،** **المعرفة الشخصانية** **نحو فلسفة ما بعد نقدية**.

    [↑](#footnote-ref-34)
34. 1 ـــــ توماس كون: (1922-1996) *Thomas Samuel*  *Kuhn فيلسوف ومؤرخ علم أمريكي ولد في سينسيناتي( Cincinnati ) بالولايات المتحدة الأمريكية، تحصل على شهادة دكتوراه الفلسفة في الفيزياء عام 1949، عمل أستاذا للفلسفة وتاريخ العلم في جامعة برنستون الأمريكية*، *عرف باهتمامه بتاريخ العلم، من أشهر مؤلفاته "* ***بنية الثورات العلمية*** *"*  [↑](#footnote-ref-35)
35. -P Feyerabend : **contre la méthode** . p 332 [↑](#footnote-ref-36)
36. -P Feyerabend : **contre la méthode**  p 20 [↑](#footnote-ref-37)
37. - بول فيرابند: **العلم في مجتمع حر**، م س، ص 116 [↑](#footnote-ref-38)
38. - بول فيرابند: **العلم في مجتمع حر**، م س، ص 116. [↑](#footnote-ref-39)
39. - بول فيرابند : **العلم في مجتمع حر** ، م س، ص 117 [↑](#footnote-ref-40)
40. - Ibid, p 152 [↑](#footnote-ref-41)
41. - P Feyerabend :  **contre la méthode** , Op cit p , p 165-166 [↑](#footnote-ref-42)
42. - Ibid, p 30 [↑](#footnote-ref-43)
43. - Ibid, p 46 [↑](#footnote-ref-44)
44. - P Feyerabend : **Contre la méthode**  ,op cit p 45 [↑](#footnote-ref-45)
45. - ادغار موران: **من أجل عقل متفتح ،** نقلا عن : محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي :**العقلانية العلمية وانتقاداتها** ، دار توبقال الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2006، ص 39 [↑](#footnote-ref-46)